تأثير الحروب والصراعات على الأسر العربية

17 – 18 أكتوبر \ تشرين أول 2016

مركز قطر الوطني للمؤتمرات – الدوحة

مؤسسة قطر

الشيخة حصة آل ثاني – المبعوث الخاص للأمين العام لجامعة الدول العربية للشؤون الإنسانية

إستضافت الدوحة في 2004 المؤتمر الدولي للأسرة بمناسبة الذكرى العاشرة للسنة الدولية للأسر. كان المجتمع الدولي حينها يسعى لإيجاد برامج تنموية لحماية الأسرة والحفاظ عليها باعتبارها "اللبنة الطبيعية والأساسية للمجتمع" (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، المادة 16 (3)).

كان الغرض للسنة الدولية للأسر تكثيف التركيز على الأسرة، وتعزيز مستوى الوعي حول مساهمات الأسر في التنمية الإقتصادية والتقدم الإجتماعي في المجتمعات. ومنذ ذلك الحين، كان هناك تركيز أكبر والمزيد من إشراك الأسر بجميع أفرادها في سياسات الحكومات الإقتصادية والرعاية الإجتماعية بالإضافة إلى البرامج التي تنفذها منظمات التنمية.

أدركت أهداف التنمية المستدامة وسلفها الأهداف الإنمائية للألفية أهمية تلبية الإحتياجات التنموية للأفراد إلى جانب وحدة الأسرة. مما أدى إلى الوصول لنهج تنموي أكثر شمولية وتكامل نتج عنه أثر أكبر على التنمية الإجتماعية ككل.

لتحقيق ذلك، تم وضع مواثيق وأهداف ومؤشرات دولية، وبرامج ومشاريع ذات عوائد تحت رعاية الأمم المتحدة تنفذ عبر المنظمات الدولية، والجمعيات الإقليمية والوطنية والعاملة في المجتمعات المحلية.

كان الهدف هو مساعدة الوحدة الأسرية من أجل الحفاظ عليها كواحدة من لبن البناء الأساسية للتنمية الإجتماعية، والتماسك والإنسجام، وبذلك الحفاظ على صحة المجتمعات ككل.

اليوم، أيها السيدات والسادة، الزملاء

نواجه في المنطقة العربية دمار البنية التحتية الإجتماعية والثقافية التي حافظت على الأسرة، مؤدية إلى تفكيك الأسرة بصفتها الوحدة التي تحفظ الثقافة والهوية وتورثها، بالإضافة إلى ضمان مستقبل أكثر إنتاجية.

نواجه اليوم حروبا ونزاعات مسلحة دمرت ليس حياة الأفراد وحسب، وإنما أساليب حياة كاملة، قاضية على أسر بالإضافة إلى المجتمعات التي قاموا ببنائها.

اليوم، بدلا من تحسين ودعم صحة ورفاهية الأسر، فإننا نجتمع هنا لبحث سبل حماية الأسر من آلة حرب مدمرة التي تركتهم معدمين، وخائفين، وجائعين، وساعين للجوء في أماكن غالبا ما تواجههم بعدائية – يعانون من ألم فقدان المنزل والمجتمع بالإضافة لأقارب وأعزاء.

نتيجة لهذا الواقع وإدراكنا بعجزنا على التأثير على أي تغيير سياسي قادر على تحقيق السلام، فإنه يبقى لنا محاولة حماية والحفاظ على سلامة الأسر، وصون وتعزيز ليس حقوقها الأساسيةا فحسب وإنما إنسانيتها.

في السنوات القليلة الماضية، كان لي الشرف المؤسف لزيارة والحديث مع الأسر التي اقتلعت من بلدانها، ومجتمعاتها، وأسلوب حياتها. يعاني العديد منهم من إضطرابات ما بعد الصدمة – مما يؤثر على صحتهم البدنية وقدرتهم على التكيف مع وضعهم الجديد. عبر أغلبهم عن قلقه الناجم من حالة عدم اليقين حول حياتهم، والعديد منهم تحدث عن خوفهم من المستقبل وكذلك خوفهم بأن لا مستقبل لهم.

ولكن الأمر الأكثر تأثيرا والظاهر بوضوح هو أنهم جميعا تحدثوا عن أنفسهم كجزء من وحدة. كانت مخاوف وأسباب قلق كل فرد منهم معبرة نيابة عن أسرتهم بأكملها. وفي أغلب الأحيان، كانت تشمل الأسرة الممتدة.

أيها الأصدقاء والزملاء، السيدات والسادة

على الرغم من أقصى جهودنا لتقديم العون، والإغاثة، والرعاية الصحية، والملجأ والإحتياجات الأساسية، فإننا لم نتمكن من إعادة بناء هذه الخلية الأساسية للمجتمع التي دمرت بسبب تفكك البناء الإجتماعي حولها الذي طالما كان يحافظ عليها.

كيف تأثرت الأسرة بالحروب والنزاعات المسلحة؟

سوف أتحدث ولغرض هذا الإجتماع، عن الأسر السورية اللاجئة بناء على لقائي بهم والتعامل معهم في عدد من مخيمات اللاجئين.

لا مجال للشك بأنه نتيجة لهذه الحرب وظروف اللجوء تفككت بنية الأسرة.

من المسلم به أن الأطفال هم الضحية الرئيسية لهذا التفكك.

يعتمد الأطفال على رعاية وإهتمام وحنان أسرهم، التي تمنحهم الإحساس بالأمان وتعرفهم على عالمهم. تتعرض هذه الروابط الأسرية – الضرورية لصحتهم البدنية والنفسية – للتعطيل في أوقات الحرب والنزاعات المسلحة وذلك نتيجة لعوامل عدة:

- عدم توافر الوالدين عاطفيا نتيجة إنشغالهم بتوفير الحماية والقوت أو هاجس البقاء بحد ذاته
- أو فقدان أحد أو كلا الوالدين نتيجة الوفاة، أو الإكتئاب، أو فقدان الأمل – حسب الحالة
- أو فقدان الأمان العاطفي الذي يوفره عادة أعضاء العائلة الممتدة

في حالات اللجوء التي تمكنت فيها الأسرة النواة فقط من الفرار، غالبا ما إلتقيت بأطفال – وأهالي أيضا – يتوقون لأجدادهم، وأعمامهم وأخوالهم، وعماتهم وخالاتهم، وأبناء عمومتهم، وفي بعض الأحيان حتى لجيرانهم وأعضاء آخرين من مجتمعهم.

لا تشكل هذه الأوضاع إخلالا لحياة الأسر بحد ذاتها، بل هي إخلال لثقافة وتقاليد أسلوب الحياة الذي عرف على مر الزمن ما يمثل الأسرة والعلاقات الأسرية وحدد مفهومهم للعالم.

إخلال مهم آخر للحياة الأسرية يتمثل في الأدوار والمسؤوليات.

يقضي التوزيع التقليدي للأدوار الأسرية في ثقافتنا بأن الأب هو مورد الرزق والمعيل المادي لأسرته – متضمنا في بعض الأحيان الأسرة الممتدة.

في حالة اللجوء، وخاصة بين أسر الطبقة العاملة، أدت البطالة الإجبارية وعدم القدرة على إعالة الأسرة إلى تحييد دور "رب الأسرة" مما نجم عنه إكتئاب حاد. هذا ما إضطر النساء والأبناء الذكور الأكبر سنا لتبني ذلك الدور في كثير من الأحيان.

لا يمكنني أن أخبركم عدد المرات التي سمعت فيها الزوجات والأطفال يقولون: إن زوجي\أبي مريض ولم يعد قادرا على العمل – وغالبا ما تكون الأعراض صداع شديد أو تعب وإعياء عام.

إن هذه بلا شك أعراض حقيقية وليست أعذارا. ولكنها بكل تأكيد ناجمة عن الإكتئاب، وفقدان الأمل وعدم القدرة على التكيف مع ظروف لم يعد بإمكانهم التحكم بها.

من المفارقات، أن الزوجات والأمهات في هذا الوضع، واللواتي لم يتعرضن مسبقا لأي من أشكال العنف أو الإهانة على يد أزواجهن، أصبحن الآن ضحايا العنف الأسري، وفي بعض الأحيان أطفالهن أيضا. إن ذلك نتيجة مباشرة لما يشعر به هؤلاء الرجال من عجز وقلة حيلة وعدم قدرتهم على التكيف مع الظروف الصعبة والمتغيرة.

رأيت في بعض الأحيان، أطفالا لا تزيد أعمارهم على 10 أو 12 عام، يتولون مسؤولية الإهتمام بإخوتهم. فرض على هؤلاء الأطفال التخلي عن طفولتهم وإتخاذ دور الناضجين.

شعرت بالتأثر والإعجاب بمستوى الوعي الذي عبر عنه هؤلاء الأطفال لدى شرحهم للصعوبات التي تواجه أهاليهم في محاولة الإبقاء على ترابط الأسرة.

ولكن هذا النضوج لدى أطفال غير ناضجين فعليا - إن صح التعبير – هو إخلال آخر لمسار حياة هؤلاء الأطفال، وهنا أعني المسار الطبيعي لحياة طفل. لقد مسحت كل جوانب الطفولة: الإعتماد الطبيعي على البالغين لتوفير العناية والحماية؛ والحاجة لرؤية البالغين كأشخاص يحتذى بهم؛ وطفولة بهيجة مليئة باللعب، والإستكشاف، والحصول على المعرفة والتعليم. بمعنى آخر، لقد إختل نمو الطفل بالشكل والوقت الطبيعي.

إنني أعلم بأن هذه المفاهيم ليست غريبة على أي منا يعمل في هذا المجال.

ولكن في لقائي بنور الدين في مخيم الزعتري في الأردن وهو في أوائل العشرينات من عمره، الذي استطاع بعفويته وحنانه لأسرته أن يوجز هذا المفهوم بكل بساطة.

هرب نورالدين من سوريا مع أخته الأرملة وأطفالها الخمسة، وأرملة أخيه وأطفالها الستة، وأمه وزوجته وطفلهما الرضيع. إن هذا الشاب هو المعيل الوحيد لأسرة من 16 فرد، بينهم 12 طفلا. يعمل حينما يجد عملا ويحصل على إعانة على شكل قسائم وحصص إعاشة شهرية. لدى إجراء مقابلة معه لوثائقي بعنوان لاجئين في وطنهم[1] قال: "ولكن هذا غير كاف لأطفال يجب أن يعيشوا طفولتهم. *طبعا نحن فقدنا الوطن، بس الطفل طالما عايش مع عيلته وأهله، هيدا وطنه*. لهيك يحتاج هؤلاء الأطفال لأن يعيشوا طفولتهم وأن يشعروا بالأمان."

يكافح نورالدين من أجل أن يوفر طفولة لبنات وأبناء أخوته وطفله، وأن يمنحهم الإحساس بحنان الأسرة الآمن في الوقت الذي إنهارت فيه كل الأسس الأخرى.

للأسف، ليست كل الأسر اللاجئة محظوظة كفاية بأن يكون لديها شخص مثل نورالدين قادر على فهم ما هو ضروري للحفاظ على وحدة وسلامة الأسرة.

كما ذكرت أعلاه، إما نتيجة للمرض أو الإعاقة النفسية أو الوفاة، يضطر أحيانا الإبن الذكر الأكبر عمرا أن يأخذ دور رب الأسرة. غالبا ما يكون مراهقا، ولا يملك الخبرة وغير جاهز لتحمل المسؤولية، ناهيك عن حاجته للتعامل مع صدمته الخاصة. إن الطريقة الوحيدة التي يمكن لهؤلاء الشباب الصغار التكيف مع هذا الدور المفروض عليهم هي بأن يصبحوا مستبدين ويلجؤون في بعض الأحيان للعنف لفرض السيطرة والهيمنة.

غالبا ما تصبح أخواتهم ضحايا هذا العنف. ظهرت في تجمعات ومخيمات اللاجئين في لبنان العديد من حالات ما يعرف بـ "جرائم الشرف". عندما تنهار كافة أسس المجتمع، فإن الأسرة تلجأ لإتخاذ تدابير متطرفة في سعيها لحماية الأساس الوحيد المتبقي.

ومن المنطلق ذاته، كانت هناك العديد من حالات الزواج للقاصرات. أشارت بعض المنظمات والجمعيات العاملة في المخيمات إلى هؤلاء الفتيات بأنه "تم بيعهن للزواج".

---

[1] لاجئين في وطنهم، وثائقي حول زيارات المبعوث الخاص للأمين العام لجامعة الدول العربية لشؤون الإغاثة الإنسانية الشيخة حصة آل ثاني لمخيمات اللاجئين؛ من إخراج علي العربي

إنني وبناء على مشاهداتي قد وصلت إلى نتيجة قد تكون صائبة أو خائبة، بأن الأسر تؤمن أن زواج الفتاة لا يخفف العبء المادي عنهم فحسب، وإنما سوف يوفر الدعم المادي لها أيضا.

ولكن، إنتهت العديد من حالات الزواج هذه بصورة مأساوية نتيجة لعدم نضوجهن، ونقص العناية الإنجابية الملائمة، و\أو غياب الدعم من الأسرة الممتدة الذي كان ميزة حياتهم في الظروف الطبيعية.

أخيرا وليس آخرا، أود أن أشير إلى أثر جانبي جدي يشكل خسارة لمنطقتنا العربية.

في بداية الأزمة السورية، فر الآلاف إلى الدول المجاورة بغية البقاء بقرب بلدهم وبين الأشخاص الذين يشاركونهم اللغة والثقافة. ولكن إن اللاجئين الذين ألتقي بهم مؤخرا يحاولون، وبشكل متزايد، إيجاد السبل للهجرة إلى الدول الغربية. أكثر الدول التي يتم الحديث عنها تضم كندا، المملكة المتحدة، والسويد. للأسف، إن هذا ليس نتيجة فقدانهم الأمل بحل سلمي وحسب، وإنما لأنهم أيضا يواجهون عدائية في الدول المستضيفة المجاورة والتي نفسها أصبحت مثقلة إجتماعيا وسياسيا وإقتصاديا نتيجة لأعداد اللاجئين المهولة.

سوف ينجم عن الهجرة إلى الغرب، وخاصة نتيجة ظروف قاسية كهذه، عددا من الأمور:

- تفكك مفهوم الأسرة الممتدة التي شكلت العمود الفقري للحياة الإجتماعية والثقافية
- فقدان علاقتهم بهويتهم الوطنية والإقليمية والدينية
- خسارتنا لأجيال قادمة من أعضاء المجتمع القادرين على الإنتاج والعطاء والمساهمة في بناء مجتمعاتنا.

تقع علينا المسؤولية في المنطقة بأن نقدم أقصى ما يمكننا لإستضافة هذه الأسر المصابة بالصدمات المعنوية والمادية. وإن لم يكن بإستطاعتنا استضافتهم، يتوجب علينا أن نؤمن الدعم اللازم لتوفير حياة كريمة لهم وقدسية أسرهم. يجب علينا المساعدة في الحفاظ على وحدة هذه الأسرة عبر توفير الأمن والمعونة للمعيليين البالغين بغية ضمان تمكن الأطفال من الإستمتاع بطفولة صحية بقدر الإمكان ضمن الظروف الحالية.

إن هذا ما أرجوه وأعمل من أجله.

شكرا لكم، وإنني أتطلع لنقاش قادر على تقديم بعض العون لمئات الآلاف من الأسر.